

## مقدمة الطبعة الثانية

عشر سنوات مضت منذ أن ظهر هذا الكتاب في طبعته الأولى - عشر سنوات حاسمة في عمر العالم ، وفي عمر الوطن ، وفي عمر الفرد . في هذه السنوات العشر ازداد العالم تباعداً عن تفكير نيتشه وعن كثير مما يمثله تفكير نيتشه ، وازداد وقع القضايا التي أثارها هذا الفيلسوف المنعزل غرابة على الآذان . وعلى الرغم من أن العالم كان يشهد من آن لآخر فترات انتعشت فيها فلسفة نيتشه بعد موته ، فإن الشواهد كلها تدل على أن من الصعب أن تصل تعاليمه مرة أخرى إلى مثل هذا الازدهار ، أو أن تثير موجة أخرى من موجات الحماسة الجارفة التي مرّ بها العلم خلال النصف الأول من القرن العشرين . وأكاد أقول إن نيتشه ، الذي ظل « مفكراً حياً » حتى أواسط هذا القرن ، يتحول الآن تدريجياً ، وبحركة بطيئة قد لا يشعر بها الكثيرون ، إلى « فيلسوف تاريخي » .

على أن هذا التحول في موقع نيتشه من العالم المعاصر ، أو في موقف العالم المعاصر منه ، لا يدفني إلى أن أعيد النظر في شيء مما قلته عن نيتشه من قبل . فقد ألفت هذا الكتاب وفي ذهني صورة محددة لنيتشه ، عرضت معالمها العامة في مقدمة الطبعة الأولى ، وهي صورة ما زلت أعتقد اليوم أنها أقرب إلى الصواب . ولو كنت قد نشرت هذا الكتاب لأول مرة في أيامنا هذه ، لكان من الجائز أن تجيء بعض فصوله أوسع نطاقاً وأكثر إسهاباً مما هي عليه . ولكنني ما كنت لأغير شيئاً من الأفكار الرئيسية الموجودة فيه ، أو من الموقف العام الذي اتخذته من هذا المفكر . ومن هنا آثرت أن يعاد طبع الكتاب على ما هو عليه . فيها هذا بعض التصويريات المطبعية واللغوية الشكائية .

» » »

ولكن . ماذا عسى أن تكون مبررات القول بأن العالم يزداد تباعداً عن نيتشه يوماً بعد يوم . وأن كل عام يمر يزيد من غرابة وقع كلماته على الآذان ؟

إن نيتشه كان قبل كل شيء مفكراً حضارياً ، ورسالته في الحياة لم تكن رسالة فيلسوف صاحب مذهب نظري ، وإنما كانت أساساً رسالة ناقد للحضارة التي يعيشها . وعلى الرغم من كل ما امتازت به نظرتة إلى الحضارة الأوربية المعاصرة له من عمق ومن قدرة على النفاذ إلى أبعد الأغوار ، فإنه كان ابناً لحضارة لم تكتمل . فنيثشه نتاج أصيل للقرن التاسع عشر ، وما كان في وسعه ، وهو يعيش في ذلك القرن ، أن يصدر حكماً دقيقاً شاملاً على الحضارة الغربية المعاصرة له ، لسبب واضح هو أن تلك الحضارة كانت تمر بفترة انتقال إلى عهد جديد لم تكن عناصره قد اكتملت بعد ، بل لم يكن بعضها قد ظهرت بوادره أصلاً .

ففي القرن التاسع عشر كان النمط الفكري الشائع – في ميدان الفلسفة الحضارية – هو النمط القلق المضطرب ، ولم يكن من المستغرب على الإطلاق أن تظهر نماذج شاذة لمفكرين يدعون إلى الفردية المطلقة . أو إلى القوضوية ، أو إلى القومية الضيقة الأفق ، إذ أن اضطراب التفكير وعدم استقراره كان أمراً طبيعياً في عصر انتقل فيه العالم الغربي من حياة قديمة إلى حياة جديدة ، دون أن يدرك المعالم الكاملة لتلك الحياة الجديدة أو يستكشف أبعادها الحقيقية أو يبتدى بوضوح إلى طريقه خلالها . في ذلك القرن اختفت طبقات كاملة – طبقات النبلاء والأشراف والإقطاعيين الوراثيين – وظهرت طبقات جديدة لم يكن لها من قبل أى صوت مسموع – طبقات العمال وأصحاب الأعمال – وكان هذا التغيير الأساسى مقترناً في البداية باختفاء بعض المعالم الثقافية التي كان يربعاها النبلاء ، وظهور معالم أخرى أكثر ملاءمة للطبقات الناشئة التي لا تتميز بعراقة الأصل أو بامتداد جذورها في الماضي البعيد . وكان من الواضح أن تحولا ضخماً يطرأ بالفعل على حياة الإنسان الأوربي ، ولكنه بدا للكثيرين عندئذ تحولا إلى الأسوأ ، وخيل إليهم أن التاريخ يتدهور وأن القيم تنهار ، وأن العصر الجديد لن يكون إلا عصر التفاهة والسطحية والابتذال . كان ذلك إذن « عصر تجربة » بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، ولم يكن من الممكن أن تثمر

البنور التي غرست في القرن التاسع عشر إلا في القرن العشرين ، بل إن بعضها لم يؤت ثماره كاملة إلى اليوم . وعلى أية حال فإن الرؤية قد أصبحت الآن واضحة ، ومعلم الطريق قد استبان ، والتجارب قد تابورت ، وبدأ يتحقق ما كان في القرن الماضي مجرد « مشروع » مهم .

ولقد كان نيتشه يفخر دائماً بأنه يتحدث للمستقبل ، وبأن أفكاره لن تفهم إلا بعد مائة عام . وقد تكون بعض اتجاهاته الفكرية سابقة لأوانها بالفعل ، غير أن موقفه العقلي العام ، ونظرة إلى الحضارة الغربية بوجه خاص ، تبدو لنا اليوم متخلفة عن ركب العصر إلى حد بعيد . إن الإنسان الأرقى ، أو « ما فوق الإنسان » ، كما تصوره نيتشه ، لن يظهر بوصفه امتداداً وارتقاء للفرد الأرسطراطي المنعزل ، بل إن الشواهد كلها تدل على أنه سيظهر من « المجموع » - من أولئك الذين كان نيتشه يعدهم عبداً لا سادة . والصراع الثقافي والأخلاقي والفني في عصرنا الحالي لا يحمل شيئاً من آثار « تنبؤات » نيتشه ، وإنما يسلك طريقاً لم يكن في مقدوره أن يتنبأ بها - على الإطلاق .

ومع كل ذلك ، فإن نيتشه سيظل دائماً مفكراً يقرأ الناس له ويقرأون عنه بشغف واهتمام . ومهما تباعد تيار العصر عن أفكاره الأصلية ، فسيظل الناس يجدون متعة في كتابات ذلك المفكر الذي لا يستطيع أحد أن ينكر إخلاصه ، حتى للقضايا الخاسرة ، والذي نادى الإنسان بأسلوب غنائى رائع ، وتغلغل بصيرته النفاذة في أعماق النفس البشرية ، وخاطبنا بصراحة لا تخاو من القسوة ، وعالج كثيراً من أمراضنا التقليدية المزمنة بطريقة الصدمات العنيفة المفاجئة . إن نيتشه يمثل نمطاً فريداً من المفكرين والكتاب ، نجد متعة في الرجوع إليه من آن لآخر ، وقد نجد في بعض الأحيان صعوبة في الامتناع عن الانسياق وراءه والاستسلام لتياره الجارف ، ولكن من علامات الاتزان العقلي أن نلتزم جانب الحذر إزاءه ، إذ أنه كان - إلى حد بعيد - مراهقاً في عهده ورومانسيته ، ولا بد للعقل الناضج أن يتجاوز دور المراهقة الفكرية .



## مقدمة الطبعة الأولى

لى مع تفكير نيتشه Nietzsche قصة ما كنت أرويهما للقارىء إلا العلمى  
أنها قصة الكثيرين معه . فئذ ما يزيد عن ثلاث سنوات ، قدمت بحثاً جامعياً  
بعنوان « النزعة الطبيعية عند نيتشه » عرضت فيه فلسفته عرضاً حاولت أن  
يكون موضوعياً إلى أبعد حد . واليوم ، حين أعود بذاكرتى إلى هذا البحث ،  
أتساءل : كيف أمكننى أن أوافق نيتشه على آرائه هذه ؟ ذلك لأن صوت  
نيتشه ، الذى بدا لى فى ذلك الحين معبراً عن موقف الإنسان فى عصرنا الحالى  
تعبيراً أميناً ، أصبح اليوم يبدو لى بعيداً عن هذا الموقف كل البعد . أصبح  
مجرد صدى خافت ، لا يلبث أن يتلاشى رزبه فى موجات الزمان . وأخذت  
أفكر فى هذا التغير الذى طرأ على نظرتى إلى نيتشه : فهل يعقل أن يناقض  
الإنسان نفسه فى مثل هذه الفترة القصيرة إلى هذا الحد ؟ ولكننى سرعان  
ما اهتديت إلى التبرير ، ولم يكن ذلك تبريراً لموقفى من نيتشه ، بقدر ما كان  
تبريراً لموقف نيتشه من عالمنا الحاضر .

فما الذى نأخذه اليوم على نيتشه ؟ إننا نأخذ عليه ، قبل كل شىء ، نزعته  
إلى اللامعقول . وإلى النزدية المفرطة . والأمران مرتبطان : ذلك لأن العقل هو  
أساس اتفاق الناس وتوحيد اتجاهاتهم ، وما إن تستقر عقولنا على فكرة معينة ،  
حتى تقف كلهما من الفكرة موقفاً واحداً . أما المشاعر والانفعالات ، فهى  
بطبيعتها فردية ، تتباين من شخص إلى آخر ، وعلى ذلك فهى أساس للتفرق  
والتمييز . وهكذا نجد الفلاسفات العقلية تصطبغ على الدوام بصبغة العمومية ، بينما  
تصطبغ الفلاسفات اللاعقلية ، أعنى المبنية على المشاعر فى مقابل العقل ، بصبغة  
فردية . وبالمثل ، فن المجال أن نجد فياسوفاً ينادى بالفردية المطلقة ، ويكون  
ذا اتجاه عقلى ، بينما تغلب النزعة العقلية على من يضعون للإنسانية مثلاً عامة

مشتركة . فوقع كلمات نيتشه يبدو اليوم غريباً على آذاننا لأن نغمته الأساسية هي التي تدعو إلى اللامعقول ، وإلى الفرد المطلق . ومع ذلك ، فقد حاولت من قبل أن أستخلص من فيلسوف اللامعقولية هذا نوعاً من المذهب المترابط ، المتماسك الأطراف ، وأن أكشف الحيط الجامع بين شعاب فلسفته المتفرقة . وعلى هذا النحو تبينت أنني لم أكن متناقضاً مع نفسي : فقد التزمت جانب المعقول على الدوام ، حتى في بحثي لأعنف الفلاسفة نقداً للعقل .

ولكن ، هل ينبغي علينا أن نتخذ من نيتشه موقفاً كهذا على الدوام ، أعني أن نستخلص من فلسفته العناصر المشتركة الموحدة الهدف ، ونغفل العناصر الأخرى ، المتنافرة المتضاربة ؟ الواقع أن لهذا التنافر والتضارب ذاته مغزاه العميق . والمهمة الكبرى بالنسبة إلى دارس نيتشه في عصرنا الحالي ليست هي أن يتساءل : هل كان نيتشه فيلسوفاً عقلياً ، فردياً ، متناقضاً مع نفسه ؟ وإنما أن يتساءل : « لم » كان نيتشه فيلسوفاً لا عقلياً ، فردياً ، متناقضاً مع نفسه ؟ فإذا توصلنا إلى مثل هذا التعليل ، فعندئذ تكون المشكلة كلها قد حلت .

والحق أن الحملة على العقل كانت في وقت ما مظهرًا من مظاهر التحرر الفكري ، بل من مظاهر تكريس الفكر من أجل التقدم بالإنسانية . ذلك لأن العقل كان في ذلك الحين مبدأً مضاداً للحياة ، يحمل على الطبيعة الإنسانية ، ويحارب الواقع ويدعو إلى الهروب منه . كان ذلك في الوقت الذي تُظن فيه أن للعقل مبادئه الثابتة التي ينبغي أن يخضع لها الواقع ، بحيث إنه أو ظهر بينهما تعارض كانت مبادئ العقل هي الصحيحة دائماً ، وكان علينا أن نفسر الواقع تبعاً لما تقضي به هذه المبادئ . في تلك الفترة الكلاسيكية كان يُنظر إلى العقل إذن على أنه ملكة رفيعة ذات محتوى فطري ، مصدره إلهي مباشر ، فهو ليس قوة تيسر للمرء سبيل السلوك في هذه الحياة ، بل هو قوة تعلو على هذه الحياة وترفع عنها وترسم لها خطتها مقدماً . وهكذا أدرك المفكرون الأحرار ، في وقت من الأوقات ، أن العقل قوة مضادة للطبيعة ، تعوق الإنسان عن ممارسة ملكاته وإطلاق قواه في هذا العالم ، وتربطه بعالم آخر فيه من الجمود ، والأزالية ،

والثبات ، ما لا تطيقه طبيعة البشر ، ولا يعرفه الواقع الإنساني ؛ ومن هنا كانت حملتهم على العقل ، ودعوتهم إلى اللامعقول .  
فمثل هذه الدعوة إلى اللامعقول كانت إذن ، في الوقت الذي ظهرت فيه ، دعوة حرة ترمى إلى أهداف إنسانية خالصة . وموقفنا بإزاء مثل هذه الدعوات لا ينبغي أن يبنى على تلك الثنائية القاطعة ، التي تؤكد أن الدعوة إلى العقل خير وإلى اللامعقول شر . فمثل هذا التقييم المطلق يغفل الظروف الخاصة التي مر بها الفكر الإنساني في مختلف عصوره ، ويتجاهل أن دلالة الاتجاه إلى العقل قد تغيرت ، ويحكم على التاريخ من خلال منظورنا الحالي وحده . وهكذا يكشف لنا مثل هذا التحليل أن النزعات الرومانتيكية في مظاهرها المختلفة – ومن ضمنها تفكير نيتشه في اتجاهه إلى اللامعقول – قد أدت إلى البشرية ، بالنسبة إلى عصرها ، خدمات جليلة ، وساهمت مساهمة كبرى في السير بها إلى الأمام ، إذ ساعدت على تقويض صرح العقل بمعناه القديم ، معنى الأزالية والثبات الأبدى ، والعلو على الواقع والحياة .

على أنه إذا كان من الخطأ أن نحمل على هذه النزعات من خلال حكم عام مستمد من ظروف عصرنا نحن ، فليس أقل من ذلك خطأ أن نتحمس لها حتى نعممها على عصرنا ذاته . فإذا قلنا إن الاتجاه إلى اللامعقول كان في وقت من الأوقات اتجاهاً إنسانياً سامياً ، فليس معنى ذلك أن هذا الحكم ينسحب عليه في عصرنا الحالي . ذلك لأن الحماية على العقل بمعناه القديم قد أدت إلى نتيجة كبرى ، هي إعطاء معنى جديد له ، بحيث لم يعد قوة مضادة للطبيعة أو عالية على الواقع ، وإنما أصبح هو ذاته تعبيراً عن الإيقاع المنتظم للطبيعة والواقع : فهو قوة تخدم الحياة وتنظمها ، وليس قوة مترذعة تُفرض عليها من مصدر عال . وإني لأذهب إلى أن الاتجاهات الرئيسية في العلم والفكر الحديث ، إنما كانت ، في صورتها الأخيرة ، تدعيماً لهذا المعنى الجديد للعقل .  
وحين يصبح للعقل مثل هذا المعنى ، وحين يغدو وسيلة تعين على تقدم الإنسان لا عائقاً يقف في وجه هذا التقدم ، فعندئذ لا يعود ثمة مبرر للحملة

على العقل وللعودة إلى مبدأ اللامعقول مرة أخرى ، بل تغدو مثل هذه الحملة مظهراً من مظاهر التأخر الفكري فحسب .

وفي ضوء هذا التحليل ينبغي أن يكون موقفنا من تفكير نيتشه : فعلينا أن ندرك أن نزعته اللاعقلية كانت تبدو ضرورية بالنسبة إلى عصره ، وإلى الفهم السائد فيه ، وقبله ، للعقل ؛ أما بالنسبة إلى عصرنا الحالي ، فلا بد أن نقابل مثل هذه الحملة بالتقد .

ومثل هذا يمكن أن يقال على نزعة نيتشه إلى الفردية : ففي عصو والتحول الكبرى — ولا جدال في أن القرن التاسع عشر كان من هذه العصور — تضيق النفوس الحرة بالمثل السائدة ، ولكنها لا تدرى إلى أين تسير ، فلا تجد أمامها إلا الترفع والانزعال والدعوة إلى الفردية . فالاتجاه الفردي ، وتمجيد الأستقراطية والترف ، ليس إلا تعبيراً عن هذا الضيق بالأحوال السائدة . ولا شك في أن هذا التعبير سلبي تماماً ، فضلاً عن أن نيتشه قد بالغ فيه كل المبالغة ، ومع ذلك فدلالته الحقيقية هي السخط على كل ما هو شائع ، والحرب من الأوضاع الباطلة ، والاعتصام في قلاع الفردية والأستقراطية . وقد يكون لمثل هذا الحل ما يبرره في فترة معينة ، ولكن تعميمه على كل الفترات والعصور ، والاعتقاد بأنه سيظل هو الحل الأمثل لمشكلة الإنسان الفكرية ، يعني أننا قد حكمنا على الإنسان بالسلبية إلى الأبد .

ولنستخلص النتيجة الضرورية لكل هذه المقدمات : فنيتشه قد سار في الاتجاه إلى اللامعقول ، وإلى الفردية ، لأن عصره كان يقتضي منه ذلك . وإذن فنيتشه هو ابن العصر ، مهما قال عنه أصحاب النزعات الأدبية والشعرية في التفكير ، ومهما وصفه كهنة الفلسفة ، مثل كارل ياسبرز K. Jaspers ، بأوصاف الاستثناء المطلق . وإذا كنا نحس في كل صفحة مما كتبه بنفوره من عصره ، وبعده عن ظروف الجماعة التي تعيش حوله ، وبحته عن مثله العليا في عصور ماضية بعيدة ، فما ذلك إلا لأن الصورة المنفرة التي رسمها عصره في أذهان مفكريه قد أرغمته على أن يهرب منه ، ويخلق بتفكيره بعيداً عنه .

وأخيراً ، فقد قلت في مستهل هذه المقدمة إن قصتي مع نيتشه هي قصة الكثيرين . واست أشك في أن المرء ، إذا بدأ حياته العقلية بداية سليمة ، سيشعر حتماً بحاجته إلى مفكر نازر على الأفكار والمثل السائدة ، يدعو إلى تحطيمها بقسوة وعنق ، ولا يعرف في ذلك توفيقاً أو مهاذنة — وعندئذ لن يجد المرء خيراً من نيتشه في ثورته ، وإن يجد عوناً له خيراً من مطرقة التي هدم بها أصنام العصر . غير أن فترة الثورة هذه تعقبها — في كل تطور طبيعي سليم — فترة البناء الإنساني الهادئ . وعندئذ لن يجد المرء في نيتشه مرشداً له ، إذ أن قدرته كلها تنحصر في حملاته ذات النتيجة السلبية وحدها . فإذا سار تطورنا الفكري في طريقه الصحيح ، فلا جدال في أننا لن نقنع بما قال به نيتشه طويلاً ، وسنبحث عن مثل إيجابية أخرى لا يرشدنا تفكيره إليها ، ومع ذلك سنظل نذكر له دائماً صيحة الاحتجاج الأولى التي لا بد أن يبدأ بها كل تطور عقلي سليم .

فؤاد زكريا